

الفصل الرابع

الفصل الرابع: ثلاثة طيور صغيرة

انطلقت ثلاث مقاتلات إسرائيلية من طراز F16 من قواعدها في إسرائيل قبل الفجر متجهة نحو شبه الجزيرة العربية، حتى دخلت في المجال الجوي للحدود بين السعودية والعراق. هنا بزغ الفجر من الجهة الشرقية للسماء، وبدأت أشعة الشمس تلمع على رمال صحراء النقب تحت المقاتلات مباشرة، وبدى الظل على رمال الصحراء من غلظتها كأنه أمواج، وبدأ يتحول لون الرمال إلى اللون البني المحمر مع انعكاس الظل عليها ليكوّن معا خليطاً من اللونين الأحمر والأسود، مشهد جميل لا يوصف. هذا المشهد لم يتغير منذ ملايين السنين، مشهد اعتاد على رؤيته الطيارين في الرحلات الإعتيادية التي تربط أوروبا مع دبي. ولكن هذه هي المرة الأولى التي يخلق فيها طيارين إسرائيليين شباب عبر شبه الجزيرة العربية، هؤلاء الرجال شاهدوا المنظر من تحتهم وعبروا عنه بشعورهم الذي لا يوصف. هنا في هذه السماء الزرقاء وفوق صحراء غير مأهولة بالسكان، تستمر ثلاثة طيور صغيرة محلقة في السماء باتجاه واحد متفق عليه وهو الشرق.

ثلاثة طيارين من نخبة سلاح الجو الإسرائيلي، الوان بشراتهم وأوطانهم الأصلية تختلف بعضها عن البعض، كما أنهم سلكوا سبلاً مختلفة لكي يصبحوا طيارين. ومع ذلك جمع بينهم الحرص الشديد في الدفاع عن إسرائيل "البلد الأم" والتشوق للدود عنها.

هم ينادون بعضهم البعض بالكنيات، قائدهم يكنى "إليت"، وهو قائد التشكيل، وكنية قائد المقاتلة في الجناح الخلفي الأيمن للتشكيل "مافيا"، و"عبد الله" يقود المقاتلة في الجناح الخلفي الأيسر.

من المعتاد على الإسرائيليين أن يعرفوا أصول الأشخاص من خلال سماع الكنية فقط، ف"إليت" يهودي اشكنازي. والاشكناز هم اليهود الذين عاشوا في ألمانيا خلال الحكم النازي. فقد تم إرسال الكثير من اليهود الاشكناز بما فيهم جد "إليت" وأخو جده وأخواتهما إلى معسكرات العمل التي أنشئتها النازية لليهود. ماتوا جميعهم في

الفصل الرابع

المحرقة، إلا والده الذي كان من المقرر أن يرسل إلى غرف الغاز في الملاجئ، ولكن كانت الحرب قد انتهت وتم إنقاذ والده من معسكرات الاعتقال. التحق والد "إليت" في شبابه بالحركة الصهيونية التي تهدف إلى بناء البلد الأم لليهود، وهاجر مع أبيه إلى إسرائيل وتزوج من امرأة من الاشكناز أنجبت "إليت".

تتكون إسرائيل من مجموعات من المهاجرين من مختلف الأصول والجنسيات. ولكن الاشكناز الذين قادوا حركة تأسيس الدولة يمثلون نخبة المجتمع. عائلة "إليت" من الطبقة العليا الخاصة في الدولة والتي تسمى WASP. وتطلق عبارة WASP في الولايات المتحدة عادة على الرجل الابيض الانغلو ساكسوني البروتستانتي White Anglo-Saxon Protestant. إلا أنهم في إسرائيل يطلقونها على الرجل الابيض الاشكنازي المهاجر الأول صاحب العلاقات White Ashkenazim Sabra with Protexia و Sabra هم المهاجرين الأوائل الذين أسسوا دولة إسرائيل، أي إذا جاز التعبير، مثلهم كمثل المهاجرين الأوائل الذين رست بهم السفينة Mayflower على أراضي القارة الاميركية. أما Protexia فتعني هؤلاء الذين لديهم شبكات اتصال متميزة ويتواصلون بشكل متميز مع ذويهم من نفس الأصول. لذلك يكونه أصدقائه بإسم "إليت" أي "النخبة".

أما "مافيا" فهو ابن أحد المزارعين الفقراء من اقليم أوكرانيا في روسيا، الذين كانوا يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. وكان لا يزال عهد الاتحاد السوفياتي الذي ولد فيه "مافيا"، حيث كان إتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية معاديا للدين سواء المسيحية أو اليهودية، وكان يرفض الكنيسة. كانت الحكومة المركزية للإتحاد في موسكو تصر على أن نظام المزارع الجماعية (الكولخوزات) سوف يحزر المزارعين من العبودية التي فرضت عليهم في عصر الإمبراطورية الروسية السابقة، وكانت الحكومة المركزية دائما تفتع المزارعين بأن المزارع الجماعية هي جنة العمال. ولكن حتى بعد تطبيق نظام المزارع الجماعية التي روجت له الحكومة، لم تتغير أوضاع المزارعين، بل وأستمر تطبيق نظام

الفصل الرابع

معيار العمل الثابت مدى الحياه. بالإضافة إلى ذلك فإن المزارعون لا يحق لهم إمتلاك الأراضي، فقط الحكومة المركزية هي التي تمتلك الأراضي ولها الحق في نقل ملكيات الأراضي لها من أعضاء الطبقة البيروقراطية الذين كانوا يمتلكونها أبان عهد الأمبراطورية السابقة. لذلك، كان المزارعون لا يجدون أمامهم سوى التضرع إلى رمز المسيح في الخفاء، في منازلهم أو في أماكن تجمعهم، إعتقاداً منهم بأنه المنقذ الذي سوف يظهر قريباً ليخلصهم من هذه الحياة القاسية.

حدثت البيريسترويكا في الاتحاد السوفياتي في عام 1985، وتسببت في تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين الروس إلى إسرائيل، ويقال أن مليون مهاجر أو أكثر هاجروا من الاتحاد السوفياتي إلى إسرائيل من خلال القانون الذي يسمى "قانون العودة"، فقانون العودة سمح لكل من كان -على الأقل- أحد أجداده يهودياً أن يهاجر إلى إسرائيل. كانت جدة "مافيا" لأمه يهودية، فبفضل هذا القانون قصدت عائلته العالم الجديد إسرائيل مع ابنهم وهو في سن الخامسة.

كان هناك شخص غير ذي صلة بدم يهودا ولكنه كان جاراً لأسرة "مافيا"، فأصر على أن يثبت بأن أجداده كانوا يهوداء، فقدم رشوة لموظف مدني لكي يحصل على شهادة مقلدة بأن أحد أجداده كان يهودياً. على أية حال، العائلات التي هاجرت إلى إسرائيل باستخدام هذه الطريقة لم تكن قليلة أيضاً.

كان المهاجرون الروس إلى اسرائيل إما أطباء أو مزارعين، والنتيجة أن نسبة عدد الأطباء مقابل الفرد الواحد في إسرائيل أصبحت الأعلى في العالم. لقد اندمج الاطباء الروس في المجتمع اليهودي سواء مارسوا مهنة الطب في المستشفيات أو لم يمارسوها. ولكن كانت أوضاع المزارعين مختلفة، فكان ليس لهم خيار سوي السكن جماعات في المستوطنات التي وفرتها لهم الحكومة الإسرائيلية. القرية الأولى التي هاجرت إليها أسرة "مافيا" كان يسكنها فقط الروس الذين يشتركون في نفس الظروف، فهم لازالوا يتحدثون اللغة الروسية حتى في مجتمعهم الجديد، ويتضرعون إلى المسيح كما كانوا يفعلون من قبل. ورغم إجبارهم من قبل الحكومة

الفصل الرابع

الإسرائيلية على تحدث اللغة العبرية إلا أن جيلا من أمثال والد "مافيا" كان بطينا جدا في تعلم لغة جديدة.

كان المهاجرون الروس المسيحيون الذين لا يتحدثون اللغة العبرية يقابلون بفتور من قبل المجتمع الإسرائيلي، ويعاملون معاملة المواطنين من الدرجة الثانية، كما كان يتم تمييزهم باستخدام أسلوب النفاق الاجتماعي، فلم يكن يتم تمييزهم بسبب موطنهم الأصلي، أو دينهم، أو خلفيتهم الأكاديمية فحسب، بل هو نفاقاً اجتماعياً في جميع التعاملات وبلا نهاية. لم يكن "مافيا" في صباه يعطي إعتبار للون الجلد أو مهن الآباء، كان يمرح بسعادة مع جميع الاصدقاء في المدرسة الابتدائية دون تمييز، لكنه لم يكن يتحمل النظرة العنصرية المتزايدة له كلما كبر. وللتغلب على هذا العائق كان "مافيا" يدرس اللغة العبرية باجتهد أكثر من الآخرين، وكان يحصل على نتائج ممتازة، وبعد تخرجه التحق بالأكاديمية العسكرية مع مواجهة القليل من العنصرية.

"عبد الله" هو قائد المقاتلة التي تشكل الجناح الأيسر، وهو من أحد سلالات العرب من البدو الرحل. بعض البدو في إسرائيل مازالوا يعيشون في نفس أماكنهم منذ عهد الامبراطورية العثمانية، وبعد الحرب العالمية الأولى هيمنت بريطانيا على المنطقة وخصصت الجزء الرئيسي من أراضي المنطقة لليهود، وخصصت الضفة الغربية للعرب باعتبارها "فلسطين". أحتلت إسرائيل فلسطين في حرب دامت ستة أيام، تسببت في تدفق أعداد كبيرة من اللاجئين العرب. ولكن "عبد الله" الذي كان يعيش في الأصل في منطقة أصبحت إسرائيلية، كان هو ومن معه قادرين على مواصلة العيش في أراضيهم، فهم السكان الأصليون الذين هم أقدم من الاشكناز. السكان العرب الأصليون أمثال "عبد الله" يطلق عليهم Mizrachim في إسرائيل، كما يطلق هذا الأسم على العرب المهاجرين من محيط العالم العربي مثل اثيوبيا أيضاً. يعامل ال Mizurchim باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية كما هو الحال في المهاجرين من روسيا، إلا أنهم يعاملون فعلياً بدرجة أقل من المهاجرين الروس. خاصة في الآونة الأخيرة، ومع إنتشار العمليات الانتحارية في إسرائيل من قبل

الفصل الرابع

المتطرفين العرب، ولسوء الطالع أصبح ال Mizrachim سواء كانوا مواطنين صالحين أو إرهابيين هم عرب، ولا يتم التمييز بينهم في نظر المواطن اليهودي ذو البشرة البيضاء، لذا نظرة الإستهياء والعنصرية تجاه العرب ازدادت سوءاً عنها تجاه المهاجرين الروس. أصاب اليأس بعض أصدقاء "عبد الله" فأنضموا إلى جماعات حرب العصابات، ولكن "عبد الله" لم يكن ليفعل ذلك، فقد أصبح "مواطناً إسرائيلياً صالحاً"، ومعنى ذلك أنه يستطيع الإلتحاق بالأكاديمية العسكرية، لم يكن لديه أي تعصب عرقي أو ديني، كان هدفه الوطني هو الدفاع عن دولة إسرائيل كموطنه. لم يكن يرغب بأن يكنى "عبد الله"، لأن "عبد الله" هو أحد الأسماء الأكثر شعبية في العالم العربي، و"عبد الله" يعني "خادم الله" في ترجمته للغة الإنجليزية، وبالتالي "عبد الله" هو بالتأكيد أسم إسلامي، لقد كان غير راض عن هذا الاسم لما له من تميز إسلامي قوي جداً. بيد أنه كان يعاني من ذلك، فقد كان ينتظر اليوم الذي لن يعطى لذلك أي إعتبار، كان يتمنى أن يعيش في موطنه "أسرائيل" مثالياً خالياً من أي تعصب عرقي أو ديني.

كان الثلاثة طيارين يحرقون في بزوغ شمس الصحراء في الأفق وقت الفجر بينما كل منهم يحمل في ذاكرته أفكاره الخاصة، ولكن لم يكن لديهم وقت كاف للاستمرار في التفكير لأجل غير مسمى. هم يحلقون الآن في المجال الجوي بالقرب من قاعدة جوية في المملكة العربية السعودية، القاعدة السعودية مجهزة بشكل كامل بأجهزة الرادارات الأرضية، ونظام الإنذار المبكر المحمول جوا (أوكس). أي أن الثلاث طائرات التي تحلق في السماء سوف يتم كشفها، فالمقاتلات السعودية قد تهاجم والمقاتلات الإسرائيلية قد ترد على الهجوم. لذا ليس من الممكن تجاهل أخذ كافة الاحتياطات لأي لحظة هجوم.

ومع ذلك، فقد تم طمأننت الطيارين من قبل قادتهم الضباط عند الاجتماع بهم قبل مغادرة القاعدة في إسرائيل، "بأن السعوديين لن يعترضوكم"، مشيرين إلى أن مسؤول في الحكومة الإسرائيلية قد تشاور مع الولايات المتحدة حول خطة الغارة الجوية قبل عدة أيام، وبعدها تم الإتفاق بين الولايات المتحدة والمملكة العربية

الفصل الرابع

السعودية على التفاوضي عن تحليق المقاتلات الإسرائيلية، وودعت السعودية بعدم التعرض للمقاتلات الإسرائيلية.

على الرغم من ذلك، فقد تم أيضاً توجيه الطيارين من قبل القادة في إسرائيل بتغيير مسار الطيران قليلاً في حالة أي طارئ محتمل، فقد كان التوجيه: (على الطيارين التحليق نحو جنوب مدينة السماوة في العراق عند وصولهم بالقرب من قاعدة حفر الباطن الجوية في السعودية). على أن يتم تغيير مسار الطيران نحو عمق الأراضي العراقية، فسلح الجو العراقي بعد انهيار نظام صدام حسين أصبح ضعيفاً، وليس هناك قلق من أي اعتراض للمقاتلات الإسرائيلية من قبل القوات الجوية العراقية. في الواقع أن الرحلة عبر الأراضي العراقية كانت غير آمنة. فيما أن أقرب المسارات للوصول إلى إيران يتم بعبور المجالين الجويين للأردن والعراق، ولكن إسرائيل والولايات المتحدة قررتا أن المقاتلات يجب أن تحلق فوق الحدود بين السعودية والعراق. في حقيقة الأمر أن معظم المقيمين في مناطق جنوب العراق هم من الشيعة كما هو الحال في الشعب الإيراني ، ولديهم أقارب كثيرين في إيران. فماذا يمكن أن يحدث لو علموا بمرور مقاتلات إسرائيلية في مجالهم الجوي، والولايات المتحدة تواطأت في ذلك؟ لكان من الطبيعي أن تشتعل المشاعر المعادية للولايات المتحدة من قبل الشيعة المقيمين في العراق، الذين تعاونوا نسبياً مع الجيش الأميركي في الإطاحة بصدام حسين حتى ذلك الحين. ولذلك، كان قرار مسار الطيران المناسب فوق الحدود السعودية العراقية.

لحسن الحظ ، لم تكن هناك محاولة هجوم من قبل القوات السعودية من قاعدة حفر الباطن، والقمر الصناعي العسكري في الولايات المتحدة كان قادراً على تأكيد ذلك. فقد زال الخطر المحتمل عن الطيارين الثلاثة، وهم الآن يحلقون على ارتفاع عالي جداً باتجاه مدينة ناطنز حيث الهدف المقصود. لقد كانوا مقتنعين بأن السعودية لن ترفض قرار الولايات المتحدة. أن الثقة المتبادلة بين إسرائيل والولايات المتحدة قوية ولا يستطيع أحد أن يقف ضدها، المملكة العربية السعودية لن تقف ضد الولايات المتحدة، لقد كانوا مقتنعين تماماً من ذلك، ليس فقط الطيارين الثلاثة، بل أيضاً الجيش

الفصل الرابع

الإسرائيلي بأكمله.
ومع ذلك ، كان هناك تحركات في الداخل في قاعدة حفر الباطن، تحركات ضد
تفأولهم.